تاريخ التصوف الإصلاحي في شبه القارة الهندية
ونماذج من المصلحين من المتصوفة
History of reformative Mysticism &
Some model Mystics of the Sub-Continent

الدكتور احمد جان*

ABSTRACT

Sufism/mysticism has played a vital role in preaching of Islam throughout the world especially in the sub-continent. The great Sufi Scholars influenced the moral and social behavior of the people of Sub continent.

The discussion in this article deals with the role of Sufism in bringing moral and social revolution among the people of Sub-continent. The great Sufis of Sub-continent including Ali bin Usman Hajwari and Moin-ud-Din Chishti spread the peaceful message of Islam all over India. These great Sufis followed the pure Sufism based on Islamic Shariah which brought a great change in Indian Society especially their moral behavior.

Keywords: Sufis, Social revolution, Moral change, Islamic Shariah, Preaching of Islam.

الحمد لله ربّ العالمين الذي أنعم على المؤمنين بنعمة القرآن ونعمة السلوك المستقيم والصلاة والسلام على رسولنا الصادق الأمين المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه أجمعين.

إن الحديث من تاريخ التصوف في شبه القارة الهندية ذو شجون وأحزانٍ فقد وضع علماء الشريعة والتزكية الروحية والنساك أقدامهم على أرض الهند فوجدوا مشاكل وعراقيل كثيرة

* رئيس قسم الدعوة والثقافة الإسلامية الجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد

في سبيل الدعوة الإسلامية غير أنهم بهممهم العالية وعزائمهم الصادقة زللوا الصعاب وصبروا وصابروا. في المجتمع الهندوسي حتى هداهم الله للإسلام على أيدي هؤلاء العلماء في حين إن حكام المسلمين في الهند لم يفعلوا شيئاً للإسلام وصالح الدعوة وإلا لما بقي في الهند هندوسي وبوذي واحدٌ أبداً.

فقد قدم الدعاة المتصوفة من بلاد خراسان من تلاميذ كبار النساك الصوفية في بلاد الترك والأفغان ونور قلوب أهل الهند بالإيمان.ومثل هذه الجهود المضيئة في تاريخ الإصلاحي الروحي أقدم هذا البحث المتواضع وقسمته إلى عدة نقاط.

أولاً: تعريف التصوف وأهميته.

ثانياً: تاريخ التصوف كمبدأ للإصلاح في الهند عقائدياً وعملياً وخلقياً.

ثالثاً: نبذة عن علماء التصوف والسلوك في بلاد خراسان وكيف وصل تلاميذهم إلى الهند.

رابعاً: نماذج من المصلحين النساك الزاهدين من المتصوفة.

فقد نماذج من جلائل أعمال هؤلاء النساك في الهند حيث تأثر على المجتمع الهندي واهتدوا للإسلام ملايين البشر على أيديهم ورفعوا راية الإسلام في أكناف الهند واصلحوا ما فسدت من الأوضاع الداخلية في المسلمين وما دخلت في الإسلام من الوثنيات والبدعات.

خامساً: وما زال عصرنا هذا في حاجة إلى التصوف السني الإصلاحي البعيد عن الشحتات والخرافات فإن التصوف الإسلامي ما زال ولم يزل يعالج الأمراض الباطنية وأرجاس النفسية.

سادساً: يجب أن نفرق بين التصوف الإسلامي ونسانده ونستفيد من فيضانه. وبين التصوف الخرافي المختلط من الأفكار الهندوسية والفلسفات الوثنية ولا يجوز الخلط بينهما

وجعلهما في سلة الزبالة بدون تحقيق وتدقيق حيث إن التصوف الإسلامي من الشريعة وخير وسيلة للوصول إلى قلوب التائهين، وبالله التوفيق.

المدخل: إن التصوف الإسلام والسلوك الصوفي له جذرور تاريخية عبر التاريخ الإسلامي. وكان له أكبر الأثر في توجيهات المسلمين الفكرية والعملية والتعبدية والأخلاقية، والتصوف الإسلامي ليس غريباً عن الإسلام، فقد اجتهد علماء التصوف مشائخه في إصلاح النفوس والقلوب علمياً وعملياً ودونوا لذلك معارفهم وعلومهم في مجال العبادات والأخلاق وكما وضعوا مناهجهم في السلوك ومعالجة أمراض القلوب وعلل النفوس ونوازع الخير والشر وأنوار الذكر والطاعة، مستهدفين برسالتهم القلب والروح والوجدان وسلوك الإنسان وفي طريقه إلى الله وفي طريقة إلى الحياة قاموا بالمحافظة على روح الإسلام.

قاموا ليجعلوا من المثاليات العليا معراجاً رمانياً ومنهجاً إنسانياً، يصنع الإنسان الكامل ويصوغ المؤمن القوي العزيز الصالح للبقاء وللحياة ولخلافة الأرض الذي خلقه الله تعالى عليها ليكون جديراً به سبحانه وجديراً بما أصبغ عليه من قوة هائلة سخرت لها ما في السماوات وما في الأرضيين.

ويقول الشيخ الأكبر الإمام محي الدين بن عربي لقد أجمع رجال التصوف جميعاً على أنه لا تحليل ولا تحريم بعد شريعة رسول الله وخاتم النبيين، وإنما هو فهم يعطى في القرآن لرجال الله وكما حفظ علماء الظاهر حدود الشريعة، كذلك يحفظ علماء التصوف آدابها وروحها، وقد تعددت طرق الصوفية ومناهجها في الإصلاح حسب الزمان والمكان، وهذه الطرق التي هيئت الجماهير واحتفظت بإيمانها وأخلاقها وصانتها من التفكك والإنهار وأصبحت هذه الطرق مصابيح مضيئة وشعل متوهجة المحجة الهادة والواحة الحصبة الضليلة التي تمنع الأمان والإباة والإطمئنان للحيارى والضالين والمتبعين فالتصوف الإسلامي هو الذي احتفظ بالعلم الإسلامي والخلق القرآني والهدى النبوىء

وأسس في كل مكان المساجد والملاجئ والمعاهد والزوايا لطلاب العلم ولطلاب الحياة. والتصوف هو الذي قام بنشر الإسلام وجمل رايته إلى كل مكان وكسب له الملائين، وأسس الدول المرابطين والموحدين لنجدة الأندلس ولحماية المغرب العربي، وفتكات القراصنة النائبين. (١)

يقول المستشرق ماكس مللر وفي جبال الهند وغابات أندونيسيا وفوق الرمال الذهبية في البلاد العربية وفي أحراش أفريقيا وذرى جبال الأطلس وجفاف الأنهر وفي أعماق القرى وفي كل مكان هنا وهناك في القارات الإسلامية يشاهد الإنسان أينما اتجه أبناء الطرق الصوفية بسمتهم وشعائرها وحماسهم وفناءهم العجيب في الإيمان بدينهم.

تعريف التصوف:

التصوف إتجاه ديني من العلوم الشرعية الحادثة في الملة، كما يقول ابن خلدون وقد وصف الجنيد البغدادي "بأن التصوف ذكر مع إجتماع ووجد مع إستماع وعمل مع إتباع" وعرفه الجزيري بأن" التصوف مراقبة الأحوال، ولزوم الآداب" (٢) إذن التصوف هو بذل الجهد في تهذيب النفس للإرتقاء بها إلى مستوى الأكمل ويقول الإمام السراج الطوسي في اللمع "فإذا قيل لك الصوفية، من هم؟ في الحقيقة؟ هم العلماء بالله وبأحكام الله العاملون بما علمهم الله المتحققون بما استعملهم الله الواجدون بما تحققوا فإن سألني سائل قد نسبت أهل الحديث إلى الحديث ونسبت الفقهاء إلى الفقه فَلِمَ قلت الصوفية من تنسبهم إلى حال ولا إلى علم، قلت بأن الصوفية لم ينفردوا بعلم من العلوم. أو بنوع دون نوع بأنهم معدن لجميع العلوم ومحل جميع أحوال المحمود والأخلاق الشريفة. (3)

إذن التصوف من حيث هو ظاهرة سلوكية تعبدية أصيلة في الإسلام وغاية من غايات المبادئ الإسلامية التي أرادت أن تصوغ الإنسان صياغة زمانية متوازنة، ولذلك نجد آثار التصوف الإسلامي في كل مكان، وهؤلاء الصوفية وأتباعهم خدموا الإسلام والمسلمين

في كل مكان، وأصلحوا البلاد والعباد بأخلاقهم النبيلة وصدق اللهجة والتود دمع مريديهم والإخلاص مع المترددين عليه وشيدوا المساجد والزوايا والملاجئ والمستودعات للغلال وإيواء للمهتدين والمدارس التعليمية والتربوية لتكوين شخصياتهم وتثقيفهم بالثقافة الإسلامية وأصبحت هذه الزوايا منارات لنشر الدعوة الإسلامية والمثل العليا والسلوك والتعامل، ولذلك بدأ الناس يهرعون إلى التكايا والزوايا الصوفية للبحث عن شفاء أمراضهم الروحية والجسدية. وهذا الذي جعلني أن أتحدث عن العنصر الصوفي في الإصلاح في شبه القارة الهندية كما أضرب مثالاً كنماذج من المصلحين المتصوفة وخدماتهم في هذا البقاع.

تاريخ التصوف في الإصلاح في شبه الهندية ونماذج المصلحين المتصوفة:

لم يكن الصوفية الأوائل رهبانا، وأنما اندمجوا في الحياة أندماجاً قوياً أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وقاوموا الفساد ودعوا إلى الجهاد ووقفوا أمام الجبابرة، يصمود وكانت صرخات الزهاد الأوائل ثورات إسلامية عارمة على الإنحراف، والزيغ، والإستبداد، والطغيان، فكانوا في ذلك يمثلون القوة الملهمة للفداء والتضحية والدرع الذي يحمل الأخلاق والعقائد والإيمان والوطن واستطاع التصوف الإسلامي في أيام إزدهاره أن ينشر الدعوة الإسلامية ويجعلها عالمية بدون سلاح وغزو، فهو الذي حمل نورها وهداها إلى أرخبيل ملاموا والفلبين والصين وقلب أفريقيا وغربها إضافة إلى شبه القارة الهندية والسيلان، وكان بغداد في أواخر القرن السابع الميلادي والثاني الهجري في عصر الخليفة هارون الرشيد العباسي المتوفي ١٩٣هـ مركزاً تجارياً عظيماً، وسوقاً تجارياً رائجا تنهال عليها البضائع رائجة، تنهال عليها البضائع والأموال من ثوب. (4)

فكان التجار من الفرس والخراسان والهند يترددون على بغداد كما كان تجار العرب يتوجهون بقوافل التجارية إلى الهند وجزر الهند الصينية. حتى إنهم قد سيطروا على تجارة بحر الهند في قرن التاسع الميلادي الثالث الهجري، فانتشر الإسلام في الهند عبر الطرق

التجارية، وانتقلت على الأيديهم الآراء التنسكيه (الصوفية) مع البضائع التجارية إلى جنوب الهند، كما وصل الإسلام من خلال الفاتحين العرب فقد فتحت غربي الهند على يد القائد الإسلامي محمد بن قاسم الثقفي عام ٩٣هـ، وأصبح جزءاً من الخلافة الإسلامية وبنو عاصمه إسلامية باسم منصورة في سنده وانتشر الإسلام على أيدي دعاة الإسلام وتبعهم أصحاب السلوك والطريقة وكانت لهم أيادى بيضا على أهل سنده، حيث جذبوهم إلى الإسلام رضا واقتناعاً، وهذه الجهود كانت فردية ومتقطعة حتى جاء الفاتح الإسلامي محمود الغزنوي من البوابة الشمالية للهند وأغار عليها سبعة عشر مرة تلو أخرى حتى وصل إلى العاصمه دلهي فواصل فتوحاته حتى تم له النصر وقضى على ملوك الهند وحطمهم الأصنام والمعابد الهندوسية، وبنى مكانها مساجد يذكر فيها اسم الله تعالى وتوفى في صفر س ٤٢٢هـ.(5)

وجلب محمود الغزنوي معه جماً غفيراً من العلماء والفقهاء وأهل التصوف والعرفان للهند حيث كان محباً للعلم وكان في طليعة الذين جاءوا للهند والبيروني والفارابي والبيهي والثعالبي، وكان من بينهم كبار علماء الطريقة من تلاميذ النساك الأفغان الذين لهم الفضل في الإصلاح ونشر الدعوة الإسلامية في خراسان وماوراء النهرأمثال إبراهيم بن أدهم البلخي المتوفي سنة ٦١هـ ومن تلاميذ شقيق البلخي ١٩٤هـ ومن تلاميذ حاتم الأصم البلخي٢٣٧هـ وفضيل بن عياض الخراساني ١٨٧هـ ومن تلاميذ عبدالله بن مبارك المروزي ١٨١هـ ومن تلاميذ أبو علي جوزجاني وأبو اليزيد البسطامي ٣١٩هـ ومحمد بن فضيل البلخي ١١٣هـ ومن تلاميذ معروف الكرخي المتوفي ١٦١هـ وقد نزح تلاميذ وأتباع هؤلاء النساك أصحاب الطريق إلى الهند ضمن الجيوش الإسلامية أوالقوافل التجارية فمكثوا وانتشروا في البلاد وحملوا لواء الإصلاح والدعوة الإسلامية في ربوع الهند.

والخلاصة أن الإسلام والدعوة الإسلام تقدمت وتخللت في الهند عن ثلاثة مجاور، عن الغرب عن طريق الفتوحات الإسلامية العربية بقيادة محمد بن قاسم المتوفي ٩٨هـ ومن شمال بيد محمود الغزنوي ومن الجنوب بجهود تجار المسلمين، غير أن فتوحات محمود

الغزنوي للهند كانت حدثاً تاريخياً هاماً، كان له الأثر الفعال في دفع عجلة الدعوة الإسلامية إلى لإمام في الهند والملائو. وقد وجدت الدعوة الإسلامية طاقة بشيطة اعطت لها قوة للإندفاع إلى الأمام وهذه الطاقة هي طاقة التصوف الذي بدأ ينموا في الهند بظهور الصوفية المحليين الكبار المسلحين بالعلم والصلاح الباطن والتربية والطريقة والسلوك وقد انتشر الإسلام على أيديهم في حين بدأ الحكام والأمراء يبذلون جهودهم في توسيع رقعه دولتهم ونفوذهم. يولون ظهرهم إلى الدعوة الإسلامية وفي كثير من الأحيان كانوا يقفون في طريق بنشر الإسلام طمعاً في تأييد الهندوس لكيان دولتهم، فقد أخذ هؤلاء العلماء الصوفية والزهاد والنساك من دعاة المسلمين نشر الدعوة الأمية وإصلاح الناس على عاتقهم خلقياً وتربوياً لأهالي الهند على حد سواء وتأثر بأخلاقهم وصفاتهم الحميدة وتعاملهم الإسلامي القائم على العدل والمساوات بين الناس تطبيقاً لقول الله تعالى، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾[6] وتمثيلاً لقول النبي ﷺ ((كلكم من آدم وآدم من تراب و في رواية الناس بنو آدم وآدم من تراب[7] وكما قال النبي ﷺ " يا أيها الناس: إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى)) [٨] فهذا المبدأ الإسلامي العظيم طبقها العلماء الصوفية عملياً في الهند فأصبح زواياهم متكدسة بالمسلمين والهندوس والمنبوذين باحثين لديهم الرشد والفلاح والنجاة إلى حياة أفضل في الدنيا والآخرة، ومن بين هؤلاء النساك الزاهدين الذين لهم الجهود الجبارة في إصلاح المجتمع الهندي المشكل من المسلمين والهندوس والبوذيين والمنبوذين، فأصبحت هذه الزوايا إشعار نور أنارت به أرجاء الهند.

نماذج من المصلحين الزاهدين المتصوفة:

ومن أبرز هؤلاء الزهاد:

أولاً : الشيخ علي بن عثمان الهجويري ت ٤٦٥ هـ ودفن في مدينة لاهور في باكستان

الحالية، وكان عالماً وفقيهاً وزاهداً من كبار رحال العلم والمعرفة والصلاح حمل لواء الدعوة في ربوع الهند، وكان يرد على المتصوفين الذين ينخذون من التصوف ذريعة لارتكاب البدع والمنكرات وله كتاب شهير في ذلك باسم "الكشف المحجوب" وترجم إلى اللغة العربية وإلى اللغات العالمية أخرى، وقد اهتدى إلى الإسلام آلاف مؤلفة من الناس فانخرطوا في بوطقة الإسلام زاهدين أتقياء وصلحاء القائمين بإصلاح المجتمع الهندي وأخذهم إلى بر الأمان. (٩)

ثانياً: الشيخ خواجة معين الدين الششتي بن غياث الدين السنجرى الأجميري الذي قدم من أفغانستان ضمن جيوش سلطان شهاب الدين الغوري في القرن السادس الهجري. ثم انتقل إلى مدينة أجمير بولايات راجستان غربي الهند، وبدأ عن طريق التصوف والأخلاق الإسلامية ونشر الدعوة الإسلامية بين الهندوس، وأسلم على يديه مئات الآلاف من الهندوس وأصبح له شعبية كبيرة بين أوساط الفقراء والقطعات المستضعفة من المجتمع وتوفى سنة ٦٢٨هـ وأصبح ضريحة مركزاً لزيارة المسلمين والهندوس على حد سواء، وكان الشيخ معين الدين يحب الفقراء حيث كان زاهداً في الدنيا، ووزع ماله على الفقراء وعاش حياة النساك وجال البلاد، ثمرقند، وبخارى في طلب العلم كما زار المدينة ثم عاد إلى الهند واستقر في أجمير، وكانت رسالته تتركز على عالمية الحب وضرورة أن يسود السلام البشرية من دون نظر إلى عقيدة وجنس أو طائفة، وكان الحكام والملوك سواء المسلمون والهندوس يداومون على زيارة شيخ معين الدين يلجئون إليه لحل خلافاتهم وقضاياهم. وعندما توفى الشيخ معين الدين عن عمر يناهض ٩٧ سنة شيد الضريح فوق مدفنه ويقام فيه التجمع السنوي في ١٠ سبتمبر يحضر الملائين من أتباعيه بغض النظر عن معتقدات الدينية، ويحتفلون به سنوياً، إن دلَّ على شيء فإنما يدل على أن المنهج الصوفى أقصر الطريق إلى قلوب غير المسلمين وإهتدائهم إلى الإسلام كما فعل أسلافنا الكرام وبعد وفاته تبعة تلميذه الخاص هو.

ثالثاً: قطب الدين بختار كاكي:

ولد قطب الدين بختيار كاكي في فرغانه في ماوراء النهر وتتلمذ على يد الشيخ الأجمير وهاجر معه إلى الهند واستقر في دلهي، وعم فيضه ونما فضله وكثر خيره، للأمير والفقير على حد سواء وتوفى هناك. (١٠)

رابعاً: فريد الدين كنج شكر ولد في مدينة لاهور سنة ٥٦٩هـ وتتلمذ على يد الشيخ قطب بن بختيار الكعكي ثم انتقل إلى "ملتان" وكان صوفياً زاهداً تقياً ورعاً قام بنشر الدعوة الإسلامية في الهند وتتلمذ على يديه نخبة ممتازة من الدعاة وأهل الطريقة أمثال مخدوم علاء الدين صابر وقطب الدين بانسوي والشيخ خواجة بهاء الدين ملتاني والشيخ منتخب الحق وكانوا جميعاً من دعاة الإسلام ومن كبار الصوفية آنذاك.

خامساً: ومنهم الشيخ بهاء الدين زكريا ملتاني المتوفي ٦٦٦هـ وعاش مائة سنة عارفاً وعالماً وزاهداً وداعياً في "ملتان" والهند حتى ألقى عليه لقب سلطان الأولياء في الهند وله ضريح في ملتان وأقيمت جامعة حكومية باسمه تقديراً لجهوده في مجال الدعوة والتبليغ.

سادساً: نظام الدين أولياء البدايوني فولد في سنة ٦٣٦هـ وكان من كبار النساك وأهل المعرفة والدعوة وكان يجمع بين الفقراء والأغنياء والعصاة والمذنبيين والعلماء المتقيين في مجلس واحد ويلقنهم دروس التوحيد والتزكية وجهز قوافل الدعاة حملوا لواء الدعوة الإسلامية في ربوع الهند ومن أبرز هؤلاء شمس الدين يحيى، نصير الدين محمود، قطب الدين بائسوى وحسام الدين ملتاني، والشيخ فخر الدين زرادي، وعلاء الدين فيلي، والشيخ برهان الدين غريب، وسراج الدين آخر، والشيخ شهاب الدين، والشيخ نصر الدين شراغ. (١١)

سابعاً: شاه كليم الله جهان آبادي:

ولد سنة ١٦٥٠م وكان عصره عصر الانحطاط والخمول والطوائف الملوكية وقد تضاءلت شموع الدعوة الإسلامية وانتشر البدع في الصوفية فقام وأخذ العلوم، والطريقة من الشيخ

يحيى المدني في المدينة المنورة، وعاد إلى الهند وحمل راية الدعوة الإسلامية والسلوك وتصدى للبدع والتقاليد الوافدة على التصوف حتى أزاح الشبهات عن ساحته وتوفى سنة ١٧٣٩م.

ثامناً: الشيخ شرف الدين يحيى المنيري قام بإصلاح التصوف من غلو الغالين وتحريف المنتحلين والتزم الشريعة والطريقة في دعوته وسلوكه وقرر أن من خالف الشريعة فهو ملعون توفى سنة ٧٨٧هـ.

تاسعاً: خواجة باقي بالله ولد في أفغانستان سنة (١٩٧هـ- ١٥٦٤م) ثم هاجر إلى الهند وأخذ الطريقة والسلوك من الشيخ قطب العالم ثم بعثه إلى بخارى فعاد مرة أخرى وأخذ على عاتقه إحياء السنة وأماتته البدع وكان يتصدى لأعداد الإسلام بكل قوة وعزم، وتتلمذ على يديه جماعة من العلماء والأمراء وطلبة العلم قاموا بدفع عجلة الدعوة إلى الأمام و توفى سنة ١٦٠٣م.

عاشراً: الشيخ عبدالحق المحدث الدهلوي: ولد سنة ١٥٥١م وترعرع في أسرة علمية حتى نمَّ فضله وأصبح من كبار علماء الحديث والتصوف في الهند وهو الذى أحيا علوم الحديث بالهند وربط الصلة بين علوم القرآن والسنة وتصدى للفرق الباطنية الضالة والمتصوفة المنحرفين عن الخط الإسلامي الصحيح ودرس علوم أكثر من نصف قرن وتخرج على يديه كبار علماء الحديث، مثال الإمام حسن بن محمد الصاغاني صاحب كنز العمال وله عدة مؤلفات في التفسير والحديث والتصوف اشهرها أشِعّة اللمعات شرح المشكاة ومدارج النبوة توفى بعد عمر حافل بالجهد والاجتهاد سنة ١٦٤٠م. (١٢)

حادي عشر: الشيخ قطب الدين أحمد شاه ولي الله الدهلوي (١٧٠٣م-١٧٩٣م)

أنه حمل لواء الدعوة والجهاد وهو إمام النهضة الإسلامية في الهند ومؤسس الحركة الإسلامية وورثها عنه ابناؤه واحفاده ومنهم علماء مدرسة ديوبند وجرت على أيدي هؤلاء الأفذاذ عيون العلم والمعرفة في الهند والباكستان وحولهما — ومسح من جبين

التصوف آثار الماضى ونفنى عن كاهله أثقاله وأحماله ومزق قيده وحطم الأسوار، والاغلال التي فرضتها عليه عهود الجمود والضعف والانحلال وبرزوا إلى ميادين الجهاد والحياة المشرقة فكانوا بحق رهباناً في الليل وفرساناً في النهار.

وبعد هذا العرض من أعلام التصوف الإسلامي ومناهجهم في التصوف وصلنا إلى هذه النتيجة أن مهجهم توفيقي يجمع بين التصوف الإسلامي الذي يدعو إلى التزكية النفس وتطهير الجنان من شوائب الأدران والآثام في ضوء القرآن والسنة وبين الحياة الاجتماعية والسنة الجارية في الكون وهي وجود السبب مع المسبب وأهمية السعى والعمل والإتيان إلى بيوت من أبوابها وطلب الأشياء من معدنها كما كان عليه السلف الصالح أمثال جلال الدين الرومي وبختيار كعكي وجنيد بغدادي وعلى هجويري ومعين الدين أجميري وقد شهدت الهند والباكستان خلال القرن العشرين معارك فكرية ضارية بين بعض الطوائف الدينية وحاول كل فريق أن يجهز عن الآخر ويجعله خارجاً عن الإسلام، وهذا طور آخر من التصوف حيث دخلته الأوهام والخرافات على أيدي بعض الطالبين للشهرة والمكافة وتلمساً لأسباب الرزق لإحداث العقائد المنسوبة إلى التصوف وهذا نوع من الصراع أحدث جروحاً لن تندمل في كيان الدعوة أما السلفية فهي تجعل التصوف كالدخيل في الإسلام بأنها فكرة فلسفية ظهرت في الهند في الهندوسية والبوذية وغيرهما حتى توافدت على الإسلام لتشويهُ العقيدة الإسلامية الخالصة. بينما تعتبر الصوفية البريلوية بأن كل ما نتمسك به ونقوم به باسم التصوف مشروع ومن صميم الإسلام وأن السلفية طائفة خارجة عن الإسلام، غير أن هناك مدرسة ثالثة، منسوبة إلى مدرسة ديوبند التزمت بموقف وسط بين المنكرين للتصوف واللاعبين به واتخذ من التصوف ما يصلح ويفيد لتزكية النفس وتذكيرها ومعظمهم مرتبطين بطريقة صوفية نقشبندية أو قادرية بعيدين كل البعد عن البدعات والشطحات والتقاليد السيئة التي ترتكب باسم التصوف وانكروا على التصوف ما يفعله البعض من المغرضين من البدع والضلالات والتواكل وأكل أموال الناس السذج بالباطل.

الصوفية في ميزان الشرع:

أولاً: إن الشرع ميزان يوزن به الرجال، وبه يتيقن الربح من الخسران فممن رجع في ميزان الشرع كان من أولياء الله وتختلف مراتب الرجحان ومن نقص في ميزان الشرع فأولئك أهل الخسران، تتفاوت خفتهم في الميزان فإذا رأيت إنساناً يطير في الهواء ويمشى على الماء ويخبر المغيبات ويخالف الشرع بإرتكاب الحركات بغير سبب محلل ويترك الواجبات بغير سبب مجوّز فاعلم أنه شيطان نصبه الله فتنة للجهلة [١٣] وهذا النوع من التصوف هو الذي يُذَمّ ويقام على صاحبه نكير وكذلك كما أحدثوه في التصوف من الرقص واللذة والأصوات والأنغام والوجد وغير ذلك مستحدثات في الدين بقول سهل بن عبدالله كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فباطل ويقول الجنيد: كل من زاد عليك في خُلقه زاد عليك في تصوفه والتصوف عظمة نفيسة شاملة لا تعرف الكبرياء والغرور ويقول أبويزيد البسطامي فإذا أحب الله عبداً أسبغ عليه صفات ثلاثة دليلاً على حبه سخاء كسخاء البحر، إحسان كإحسان المس، وتواضع كتواضع الأرض. [١٤]

ثانياً: الاقتصاد على الجانب الروحي وأهمى الجوانب الأخرى إنحراف كبير في الفهم والمنهج التربوى لأن الإسلام ليس نظاماً تعبدياً ولا شعائر تعبدية فقط بل نظام للحياة البشرية في شتى مظاهرها – يقول تعالى ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾. [١٥]

ثالثاً: إن المتصوفة ما زالوا بعيدين عن كتاب الله وسنة رسوله دراسة وعلماً في إطار ضوابطها الصحيحة وعلوم الأصول والفروع فهم لا يدرسونها ولا يستفيدون من كنوزها ويبالغون في فهم المعاني الباطنية فلقرآن الكريم فهذه المبالغات قادت كثير منهم إلى إحداث البدع والمنكرات والضلالات الخطيرة التي وصلت ببعضهم إلى حد الزندقة والإلحاد والقول بالحلول والاتحاد وفكرة الاخلاء والإملاء متخذين في ذلك "من

الفلسفات الوثنية الهندية قديماً واسبينوزا حديثاً ومن الغنوصية المنحدرة من المسيحية والباطنية" نبراساً لتفكيرهم ومن هذا المنطلق يبدو واضحاً عجز الجماعات الصوفية عن مواجهة الجاهلية الحديثة ودحرها والصمود أمامها وبالتالي عدم أهليتها لتكون هي الجماعة التي يؤمل أن يرد الله بها كيداً أعداء الإسلام كما كان إسلافهم علماء ربانيين صادقين في الزوايا، ومجاهدين في ساحة المعارك دفاعاً عن الدين والوطن يبنى ويشيد ويبعث الطاقات المدخرة، ويحرك الهمم الفاترة للنهوض إلى فجر جديد وهذا الصنف من التصوف لا يد أن يعود مرة أخرى ليرفع راية الشريعة مع الطريقة عالية خفاقة في ربوع العالم.

الهوامش

١. التصوف الإسلامي رسالته ومبادئه ماضيه وحاضره مشيخة عموم طرق الصوفية، ص:٢٥-٢٨طبع دار الكتب العربي قاهرة مصر،.المذاهب والأفكار المعاصرة في التصوف الإسلامي لمحمد حسن، ص:٥٣، ط دار البشير طنطا بمصر

٢. اللمع لأبي نصر عبد الله بن علي السراج الطوسي،ص: ٥٢

٣. موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، لدكتورأحمد شبلي، ص: ١٤٧/٣، دار النهضة القاهرة

٤. والتفصيل في نزهة الخواطر لعبد الحي الكهنوي ص: ١/ ٩٠، ط دهلي و حيدر آباد،

٥. الكامل لابن الأثير ص:٩ /٥٤ ، ط بولاق وتاريخ المسلمين في الهند لدكتور عبد المنعم النمر، ص:٨٨، ط القاهرة

٦. سورة الحجرات، الآية : ١٣

٧. رواه أحمد في المسند (٨٧٣٦) وقال محققوه: إسناده حسن، وأبو داود في الأدب (٥١١٦)، والترمذي في المناقب (٣٩٥٦).

٨. رواه البيهقي في الشعب باب في حفظ اللسان (٢٨٩/٤)، وقال: في هذا الإسناد بعض من يجهل، عن جابر، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: صحيح لغيره، ورواه أحمد في المسند (٢٣٤٨٩)، وقال محققوه: إسناده صحيح، عن من سمع النبي، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح (٥٨٦/٣).

٩. علي الهجويري :كشف المحجوب: ترجمة إسعاد قنديل- بيروت.١٩٨٥

١٠. مآثرالكرام في آثار هندوستان لآزاد بلجرامي ،ص: ٧ وما بعد ط دلهي وسير الأولياء لأمير خودر، ص:٢٧، ط دلهي وراجع تاريخ الدعوة والعزيمة، للشيخ أبي الحسن الندوي، ص:٣٠/ ٣، دارالتبشير القاهرة وباكستان

١١. أنظر تاريخ فيروز شاهي ضياء برني، ص٤٦، ط لاهور باكستان وتاريخ مشائخ جشت خليق نظامي،ص:٣/ ، ط دار القلم لاهور ١٦٩وتاريخ الدعوة للندوي، ص:٣٠/ ٣

١٢. أنظر التفصيل تاريخ الدعوة بالجهاد لعبدالله فهد فلاحي، ص: ٩٣ ط تعمير إنسانيت لاهور وتذكرة شيخ عبدالحق دهلوي أحمد قادري ص:١٣٩ ،ط الهند، وحياة الشيخ عبدالحق محدث دهلوي لخليق أحمد نظامي، ص: ٣٠٢، مكتبة إسلامية لاهور

١٣. أنظر قواعد الأحكام لمعز بن عبدالسلام :ص:٢/ ٢٢٩، ط دار الشروق بالقاهرة

١٤. تاريخ الفكر الفلسفي للدكتور محمد أبو ريان، ص: ١/ ٢٨٧ ، ط١٩٧٠م دار النهضة ببيروت

١٥. سورة القصص، الآية: ٧٧.

المصادر والمراجع

تاريخ الدعوة والعزيمة للشيخ أبو الحسن الندوي، ط دارالتبشير القاهرة وباكستان.
تاريخ فيروز شاهي، ضياء برني، ط لاهور باكستان.
تاريخ الفكر الفلسفي د. ريان، ط دار النهضة بيروت.
تاريخ مشائخ جشت خليق نظامي، ط دار القلم لاهور.
تاريخ الدعوة والجهاد، عبدالله الله فهد فلاحي، ط تعمير إنسانيت لاهور.
تذكرة شيخ عبدالحق الدهلوي أحمد قادري، ط مكتبة إسلامية لاهور.
حياة شيخ عبدالخالق خليق نظامي، ط مكتبة إسلامية لاهور.
تاريخ المسلمين في الهند د. عبدالمنعم النمر، ط القاهرة.
التصوف الإسلامي رسالته ومبادئه ماضية رجالخرة مشخية عموم طرق الصوفية، ط دار الكتب العربي القاهرة.
سير الأوليا، لأمير خورد، ط دلهي.
المذاهب والأفكار المعاصرة في التصوف الإسلامي، محمد حسن، دار التبشير طنطا مصر.
موسوعية التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، د أحمد شلبي، دار النهضة القاهرة.
تأثر الكرام في آثار هندوستان، آزاد بلجرامي، ط دلهي.
نزهة الخواطر، عبدالحي لكهنوي، ط دهلي وحيدر آباد.
قواعد الأحكام، لعز بن عبدالسلام، ط دار الشروق القاهرة.
الكامل لابن أثير، ط بولاق القاهرة.

☆☆☆☆☆☆☆☆☆☆☆☆☆☆☆☆☆☆☆☆☆☆☆☆☆